قصة قصيرة

لطيفة باقا

النـــار
تأكل أوراق اللعب

أقتل الوقت.. والبعوض..

صفية «الطرشاء» تملأ «الشقف» وتنتشي.. تنسحب نظراتي المتعبة فوق سحنتها الشاحبة. أظلّ أتتبع امتداد التجاعيد والتعرّجات.. وأفكر أنني اَلِفْتُ هذا الوجه القديم.. أتأكد من ذلك مرة أخرى..

صفية دفنت زوجها الأسبوع الماضي. جمعت الأعشاب والتقطت الحلزون ثم جاءت إلينا. كنا مجتمعين حول «زهور الشوّافة» التي كانت «تشوف» في ورق اللعب وتبشّرنا بالأرزاق والأزواج والعشّاق الجدد. ألقت صفيّة بكيس الحلزون في الركن قرب الباب ودخلت. لم يلتفت أحد لدخولها. زهور الشوّافة تخبرني برزق «سينزل» عليّ أو على شخص قريب مني - تضع صفيّة يدها على كتف المرأة بجانبي وتعلن بهدوء مخيف..

- مات زوجي هذا الصباح.. لقد دفنته.

سقطت ورقة اللعب بنقودها الصفراء وقطع العشرة فرنكات القديمة وأخفتها ورقة «الراي» الملك.. رأيت الحنّاء السوداء على يد زهور وهي تلتقط الورقتين.. رفعت رأسي إلى النساء حولي.. إلى زهور... كانت تدسّ الأوراق في صدرها..

جلست صفيّة.. أخرجت «السبسي» الطويل من جوربها وأخذت تعبّئه..

- لقد جلبت لكن بعض الحلزون.. سأعود «لِلْمحال» عند نزول المساء. أهل الدوار سيجلبون «الطلبة» هذه الليلة.

أخبرتني ذات صباح من السنة الماضية أن زوجها «أطرش» مثلها.. وأن هذا يجعلهما مُعْفَيَيْن من التعنيف لبعضهما.. كانت صفية قد غادرت دوراها الأبوي في سن مبكرة لأن الحياة كانت تناديها خلف أشجار الزيتون العتيقة.. وهي كانت أجمل من أن تخذل نداء الحياة.. يتفصّد جسد صفيّة بالعرق.. وجسد محمد.. وجسد الطفلة أيضاً.. والبعوض - هل يعرق كذلك؟ كان التلفزيون قبل لحظة يقوم بإحدى محاولاته في إيقاد النار تحت ثياب المواطنين والمواطنات.. أما الآن فهو يحاول أن يهزّ بطونهم.. فجأة ينتفض عبدالعالي ويدخل الحجرة. ثم يخرج مرتدياً قفطاني الأحمر. أخذ يرقص.. يتمايل ويهزّ عجيزته الغامرة على أنغام الأغنية الشعبية.. محمد يحرّك رأسه لعبدالعالي.. وينتزع الضحك من شفتيه.. أتأمل شفتيه أفكر أنه ربما كانت عضلات فمه تؤلمه.. أقول ذلك لأنه يحدث لي نفس الشيء حين أضحك بدون رغبة حقيقية.. أي عندما أجامل بالضحك..

الطفلة تراقب صفيّة وهي تنفث الدخان الكثيف من فمها.. الرائحة القوية تغمر المكان.. الطفلة لا تندهش وصفية تعيش صمتها الخاص.. وحين تلقي برأسها على الوسادة تأخذ في الغطيط مثل شاحنة في سكون الليل..

أفكر أن عبدالعالي يمارس أنوثته.. وصفية تمارس ذكورتها: تدس أصبعها في أنفها، تحك ما بين فخذيها.. وتدخن «الكيف» أمام الملأ.. وعندما يبدو أنها فهمت شيئاً مما نقوله، وراق لها، تضبط بيدها على راحة أقربنا إليها.. رأيت في الشهور الأخيرة كيف صارت زهور الشوافة تفعل مثلها.. وغاظني أن يتعامى الكبار مع بعضهم مثل الصغار.. كانت صفيّة تعرف كيف تجعلنا نستلقي من الضحك دون أن تشاركنا ذلك... ثم تنسى وجودنا حولها وتستغرق في حديث داخلي مطول..

أكتشف أنها لم تلتفت إليه وهو يرقص أمامنا.. كانت تتابع

حلقات الدخان الكثيف بعينيها الغائرتين.. كنا نضحك.. لكني توقفت فجأة.. أحسست بالعضلتين في جانبي فمي تؤلماني وصرخت في أذن صفية:

ـ أنتِ ذكر ـ وهو أنثى .

ضحكت ودفعتني حتى انقلبت على ظهري وهي تقول بصوت مرتفع:

ـ لقد كنت أنثى فيما مضى ـ لكن ذلك لم ينفعني في شيء كما ترين!..

وهزت أسمالها حتى كشفت ساقيها الناضبتين..

أردت أن أسألها عن تاريخ ساقيها.. ويديها.. ونهديها.. ثم تراجعت.. كان الوقت متأخراً والطفلة لم تنم بعد.. الطفلة تسألني عن اللّه.. ولا أجيبها.. تضيف «إنه كبير جداً.. يوجد قرب المسجد.. لا يراه أحد.. إنه يختبئ في الصومعة».. أما أنا فقد كنت أراه فيما مضى.. كان يمر قرب بيتنا. في الخريف وبعد أن تنام أمي ويذهب أبي إلى العمل.. كنت أضع الوسائد فوق بعضها وأقف في النافذة ثم أشد الستار.. وأظل أنتظر مروره.. عند القيلولة كنت أتذوق طعم الموت.. لكنه كان يأتي.. لم يكن ليخلف مواعيده قط. كنت أنتظر هناك.. والريح تعلق بأوراق الشجر وأكياس البلاستيك وقصاصات الأوراق بعيداً عن زقاقنا الضيق.. كنت أعلم أنه سيمر وأنني سأسمعه وهو يعلن بنفسه عن حضوره..

ـ أنا ربِّي!

.. ثم يظهر بجلاليبه المهترئة المتسخة ولحيته البيضاء الطويلة، بوجهه السمح الذي يشبه وجه جدي في الصورة.. جدي الذي مات يوم رأيت النور فاسحاً لي مكاناً في العالم.. أي لم تكن تعلم بوجود «ربّي» لأنها عندما تستيقظ يكون هو قد رحل ـ تاركاً خلفه صدى صوته الكسير المتعب تتقاذفه جدران الأزقة...

لكن حدث ذات ظهيرة ـ وكنت قد أصبحت لا أحتاج إلى استعمال الوسائد لآراه ـ أن سمعته يقول في صمت الزقاق:

ـ آ غلَى ربِّي..

لم أصدق.. هل غيّر لغته؟ لقد كان يقول في السابق إنّه «ربِّي» لماذا يخفي حقيقته الآن.. لماذا تحول إلى شحاذ فجأة؟

ـ هل رأيته؟

أمسح على شعرها الناعم كي تنام.

ـ لا لم أره.. لكنه يقول «اللّه أكبر» إنه كبير جداً.. إنه يوجد في المسجد قرب الحديقة.

«كثرة الهمّ تضحك» تقول صفيّة وتسترسل في ضحكها..

سأسلم لصاحب الدكان نصف ماله بحوزتي.. وأقتني منه كيس دقيق وبعض البن ليضيفه إلى الحساب.. محمد اقترح أن نبيع التلفاز.. في التلفاز تخبط «الشيخات، على «طعرجاتهن» بأصبع واحد فقط وعبدالعالي يقلدهن على طريقته ـ لا يمكن أن نبيع هذا الجهاز السحري الغارق.. صفية قالت إنها ستقرضنا بعض المال لفك ضيقتنا إذا ما حصلت على بعض النقود من «السعودي»..

السعودي ليس سوى «كبيس» نادل المقص الأعرج الذي قطعت رجله منذ سنتين بسبب تعفنها.. لقد فاز في «التيرسي» بستة عشر مليوناً.. لو كنت أنا التي فزت بهذه الأموال لكنت اشتريت بيتاً ودراجة نارية نمتطيها أنا ومحمد إلى المعمل.. وصحبت صفية إلى طبيب الأذن بالدار البيضاء.. لو كنت مكان هذا السعودي الزائف لركلت حياتي الجرباء هذه ووجودي المقرف برمته.. الإنسان ينبغي دائماً أن يعلم بوجود أقل سخافة وإلا فهو حيوان أجرب يستحق إهانات صاحب الدكان وتحرشات الجيران واستخفافات المارة.. أن يعلم الإنسان في حد ذاته شيء عظيم جداً.. ويثير الاحترام..

قالت صفية:

ـ لماذا لا تبحثين عن «اخوية» فيها شوية دْلفلوس؟ مع السعودي مثلاً.. إنه يوزع أمواله، هذه الأيام، يميناً وشمالاً.. صفية تقول ذلك لأنها لا تعلم أنه كان يضع يده دافئة فوق ذراعي العارية ونحن في البداية منذ عشر سنوات.. ويقول لي إن الحياة بدوني لا تساوي بصلة. كنت في ذاك الزمن من هواة الاستخفاف بالمواعيد.. لهذا شدني من يدي ذات مساء وقال لي أمام «الفرن» إنه سيتزوجني ويحبسني في بيته للأبد حتماً لا يكون بإمكاني إخلاف مواعيده.. كنت محمومة وأرتجف وكانت أمي قد أسقطت كتفيّ من جراء الغسيل.. دفعته عني وفي عينيه رأيت سجني وحريتي.. وكانت ريح العشية الباردة تداعبني.. فقلت لنفسي «ما أسعدك يا فوزية!». في عرسنا جاء أصدقاؤه وأنشدوا أناشيد السجن التي تتحدث عن الظلم و «الحُكرة» وكانوا يخفون قناني النبيذ أسفل مقاعد الفرقة

الموسيقية الشعبية.. وفي وقت متأخر من الليل.. نشبت معركة بينهم وبين أفراد عائلتي.. فسبني محمد أمام الملأ ولعن سنسفيل أجدادي ثم التحق بأصدقائه الذين كانوا قد طردوا من منزلنا.. ولم يعد لنتم العرس..

في الغد جاء فوقف أسفل نافذتي وأخذ يصرخ..

- فوزية إنزلي.. إجمعي ملابسك وانزلي!

هدّدني إخوتي بالقتل.. عندما ذهب أكبرهم إلى دكانه وتبعه الآخران.. واطمأننت إلى انهماك أمي في غسل أواني العرس فوق السطح.. تسللت من باب المرأب ولحقت به..

صفية لا تعلم بذلك، لهذا تقترح علي أن أفعل مثل «العيالات القادّات» ولا زهور الشوافة التي لا «تشوف» أبعد من أنفها.. والتي لم تستطع حتى أن ترى «مستقبلها» الخاص مع الدركي الذي اعتاد أن يخبط على باب الحمام حيث تعمل ويأخذ نقودها ثم ينصرف.. جميعهن لا يفهمنني.. يعتقدن أن عراكنا اليومي والأواني التي نكسرها تعني شيئاً آخر غير تشبثنا ببعضنا.. إنه أقذر معتوه قابلته في حياتي.. وأنا حتماً أعني نفس الشيء بالنسبة له.. لكننا نندمج تماماً في الغناء.. أحياناً نمضي الليل نغني معاً أغاني أم كلثوم وناظم الغزالي.. هذا سرنا الكبير.. بدون شك - ولا أنوي أن أكشف عنه لأحد.. وإن كنت أحدس أن كشفي إياه لصفية قد يجعلها تقرر أخيراً إطلاعي على حكايتها.. التي سمعت شذرات منها معدلة، وبتصرّف، على لسان نساء الحيّ.. قصة شقراء ريفية هربت ذات فجر من دوارها وهي تعلم أن الخارجات.. ميتات. يحلو لي الآن أن أفكر أنها تَبِعَتْ سراب حب كبير.. تماماً مثل الفراشات التي لا تقوى على مقاومة سحر الضوء.. الضوء، هل حرر صفية من العتمة؟

- غط.. غط.. يرتفع شخيرها..

أفكر أنني أحب وجهها القديم وخطوط تاريخها الخاص عليه.. أحب صمتها.. وضجيجها.. ولا أعلم شيئاً عن مونولوجاتها المطولة التي تنفثها داخل حلقات الدخان الكثيف.. أمنح راتبي الشهري وأعرف قصتها.. أتخيل فيها رجلاً.. رجل صاعق.. ولحظات من ضوء وموسيقى لم يستطع كل هذا العمر أن يخمد نبضها في الذاكرة.. آه يا صفية لقد مر الزمن فوق وجهك وترك آثار أقدامه اللعينة..

تغط صفية.. أمسح حبات العرق عن جبين الطفلة.. عبدالعالي ينضو عنه ثوب النساء.. محمد يستلقي في الركن.. وينسى أيامنا.. ولمست يده الدافئة فوق ذراعي العارية.. أنتزع أصبع الطفلة من فمها.. وأرى السؤال نفسه لايزال ينبض تحت جفنيها النديّين.. أعدّ ما علينا من ديون.. أتذكر رب العمل.. وضجيج المعمل.. وأحلم.. وأحلم.. أحلم بحياة حقيقية.. حياة حقيقية؟ أجل حياة حقيقية.. ألا أستحق ذلك؟